الهوية الوطنية ونطاقات الانتماء: سياقات ثقافية–مجتمعية–مكانية في عصر العولمة.

National identity and scales of belonging: societal-cultural-spacial contexts in the era of globalisation

عزيون محمد اليمين[1]، سعيدي محمد[2]

[1] جامعة أبو بكر بلقايد (تلمسان)، amlyamine@outlook.com

[2] جامعة أبو بكر بلقايد (تلمسان)، msaidi45@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 10-05-2021 **تاريخ القبول**: 30-05-2022 **تاريخ النشر**: 15-06-2022

ملخص: حاولنا من خلال هذا الدراسة النظر في المعاني التي يعاد بناؤها مكانيا وسوسيوثقافيا لمفهومي الهوية الوطنية ونطاقات الانتماء وفق متطلبات العولمة. فأمام ما تفرضه العولمة من أنماط ثقافية تغيرت مدركاتنا لماهيتنا الجماعية داخل حدود الدولة القومية التقليدية ومعها النطاقات التي نعتقد عبرها بالتجانس النسبي وبالتالي الانتساب اليها. مع شيء من الشك حول تقهقر النطاق الوطني أمام النطاقين العالمي والمحلي، حاولنا إعادة طرح الأفكار التي تدعم مفهوم الهوية الوطنية بصياغة مغايرة وتفرض وجوده من جديد.

الكلمات المفتاحية: الهوية الوطنية؛ نطاقات الانتماء؛ السياقات المكانية؛ السياقات السوسيوثقافية.

Abstract : We tried, through this study, to view the meanings reconstructed spatially and socioculturally of the concepts of national identity and the scales of belonging under the requirements of globalization. Faced with the cultural patterns imposed by globalization, our perceptions of our collective identity have changed within the boundaries of the traditional nation-state and the areas of relative homogeneity and thus affiliation with it. With some doubt about the demise of the national scale, we tried to reintroduce the ideas that support the concept of national identity in a different formulation and impose its existence again.

Keywords: national identity; belonging scales; spatial contexts; sociocultural contexts.

المؤلف المرسل: عزيون محمد اليمين، **الإيميل**: amlyamine@outlook.com

1– مقدمة:

انتقلت مواضيع الهوية الوطنية والانتماء من وضع التناول الداخلي إلى مسألة ذات اهتمام عالمي، تحتل حيزا في نقاشات الدوائر العلمية والثقافية والسياسية والمجتمعية، وتتحدد وفقها عديد الرؤى حول مختلف القضايا المتداولة. وقد دُفِع بها إلى الواجهة بفعل تداعيات فرط العولمة وما حملته من تقارب اتصالي وحركية للأفراد والقيم الرمزية للمجتمعات، ما انجر عنه تغير في فهم حقيقتها وتحول في الممارسات المرتبطة بها. فكثيرا ما كان ينظر إليها كحالة مستقرة ثابتة تؤطر وجود الفرد والمجتمع ليتقمص قيمها ويتبنى تصوراته حول الأنا والآخر وفقها. وما ذلك إلا للاستنباطات المرتبطة أساسا بنشأة الدولة القومية التي أوجدتها، داخل نطاق وطني جامع وعرفتها بما يحتويه من تفرعات ذات نطاق محلي، ولكن أيضا وفق امتداداتها الخارجية على نطاقات إقليمية وعالمية. أما وقد تغير الحال فإن صياغة معدلة لمعاني الهوية الوطنية والانتماء تبدوا ضرورة ملحة.

والظاهر أن لهذا الفعل طريقا شاقا تحفه الكثير من المطبات التي تدفع إلى حالات عدم التوازن والريب حول الأطر القيمية الوطنية والتي صارت احتمالية أكثر بل حتى إن مفهوم الهوية الوطنية ذاته بصرف النظر عن المعاني التي يحملها من الجهات الرسمية أو المسلم بها لدى الخاضعين لم يعد يؤشر على جوهر واحد معلوم وثابت، وعلى العكس فإنه حمال أوجه قابل للتعدد والتغير زمنيا أو مجتمعيا بين مختلف الفئات. فهو "لا يشير أبدًا إلى أي شيء ثابت أو غير متغير أو جوهري، بل يشير دائمًا إلى عنصر يقع في سيرورة الزمن، يتغير باستمرار، شيء متضمن في مجموع عمليات. وهذا ينطبق بالطبع على جميع أشكال الهوية الشخصية والاجتماعية (Wodak, Rudolf , Martin , & Karin , 2009, p. 11). وتلك ميزة عامة اتسمت بها هوية ما بعد الحداثة كما وردت في منشورات تستهلها "الحداثة والهوية الذاتية Modernity and Self-identity" لأنتوني جيدينز (1991) إلى "الحياة السائلة Liquid Life" لزيغمونت باومان (2005). وفي نظرة متطرفة اقترح العديد من الكُتَّاب أن الهوية الوطنية آخذة في التدهور

والتلاشي. وقد قيل أن عمليات الهيمنة العامة للعولمة والاعتماد المتبادل الدولي، وبشكل أكثر لفتًا للانتباه من خلال المؤسسات الفوق وطنية، تؤدي إلى تشويش الهويات الوطنية ونمو النمط الموحد للمواطن العلمي. وصار معظم الناس كما يرى "ميلر" "لا يهتمون كثيراً بهويتهم الوطنية في معظم الأوقات" (Miller, 1995).

في المقابل، أبرز التواصل المباشر للهويات الكثير من التجاذبات والصراعات التي معتركها في الغالب ثقافي هوياتي مما أدى إلى الالتفات المتزايد للذات، الماهية والكينونة واكتشاف الصعوبة التي تقف عليها الهوية الوطنية في حصر مكوناتها والحفاظ على حالة التوازن الشعوري حول الانتماء والولاء. وأبرز أشكال الصراع –وهو أكثر وضوحًا وعمقًا– يوضح ديفيد بلوك (Block, 2007, p. 20) ينشأ خاصة عندما ينتقل الأفراد عبر الحدود الجغرافية والاجتماعية والثقافية. في مثل هذه المواقف، "غالبًا ما يجد الأفراد أن أي مشاعر قد تكون لديهم عن نفسية مستقرة منزعجة وأنهم يدخلون فترة من النضال للوصول إلى التوازن. في هذه المرحلة، من السهل تصور الهوية على أنها متنازع عليها في الطبيعة لأن المدخلات الجديدة والمتنوعة المقدمة للفرد تعمل على تشويش النقاط المرجعية المسلمة".

الشيء الذي يلزمنا بتقبل أن "الهويات لا تتوحد أبدًا، وفي أواخر العصر الحديث، تزداد تجزؤًا وانقسامًا؛ ليست مفردة أبدًا بل تتضاعف عبر خطابات وممارسات ومواقف مختلفة، غالبًا متقاطعة ومتضاربة. هذه الهويات تخضع لعملية تأريخية راديكالية، وهي دائمًا في طور التغيير والتحول. (Hall, 1996, p. 4) وبالتالي، نستشعر مرة أخرى بأن الهوية الوطنية ليست ثابتة مستقرة على حالة الميلاد الفرد وليست مرتبطة بالمكان الذي ولد فيه؛ بل هي مشروع مستمر، يُبْنَى رسميا وفق السياسات العامة لتوجيه الشعور العام ولكن هو أيضا نتاج إعادة بناء يومية بسلوكات بسيطة حيث "يعاد إنشاؤه يوميًا من خلال إجراءات مثل التلويح بالأعلام واستحضار الأحداث التاريخية لشرح الظواهر الحالية. وبالتالي، حتى في حالات الأفراد الذين ولدوا وترعرعوا وتعلموا في منطقة معينة لدولة قومية معينة، فإن إحساسهم بالهوية الوطنية هو مشروع مستمر يجب رعايته بأي عدد من الرموز والأنشطة" (Block, 2007, p. 30).

وهذا يقودنا إلى القول إنه من الأهمية بمكان اعتبار الهوية الوطنية، مثل الهويات الأخرى، تتعلق باستخدام "موارد التاريخ واللغة والثقافة في عملية الصيرورة بدلاً من الوجود: هي ليست حول "من نحن" أو "من أين أتينا"، بقدر ما هي حول ما يمكننا أن نصير (Hall, 1996, p. 4).

لذلك فلن تكون المسألة قضية اثبات وتأصيل أو دحض وإنكار للهوية الوطنية، ومعها الانتماء، ولكن تحليلها على أنها تمثل جماعي، لصيرورة تحركها المتغيرات السوسيوثقافية والمكانية وتتأثر بها هي الأخرى، يسمح بإعادة صياغة مفاهيمية تنبني معها الأطر والمرجعيات الأساسية للممارسات اليومية المنتجة لها في المقابل. والذي يحمل هذه المعاني كما تذكر "نتالي هاينريتش" "لا يحتاج إلى الإشارة إليه كطبيعة أو جوهر خالد من أجل أن يكون موجودًا ونشطًا: مبني تاريخيًا، سياقيًا، مثاليًا، ومع ذلك، فإن لها تأثيرات ملموسة وقوية في بعض الأحيان، من خلال عدد حامليها، وتعدد مكوناتها، وتأثيرات التعلق التي تنتجها، وقبل كل شيء، من خلال دعائمها المؤسسية. الأمة، التي يحملها رموز وممثلون، مستثمرون بالسلطات، هي تمثل يتحول إلى مؤسسة، وبالتالي فهي تفرض نفسها وتتصرف في العالم مهما كانت المكونات والمتغيرات والقيم غير المتكافئة، التي تجعل في عيون الأفراد "هويتها" (Heinich, 2018). فهناك روابط قوية بين هذه السمات السوسيوثقافية المكانية مثل الجنس والعرق والطبقة والمكان من جهة ومحددات الهوية والانتماء للأشخاص المقيمين داخل نطاقات متراكبة، ممن جهة أخرى ما يجعل دراسة هذه الروابط موضوعًا مناسبًا للبحث.

2– في الهوية الوطنية ونطاقات الانتماء:

على العموم تعتبر الهوية الوطنية ظاهرة مستحدثة ظهرت خاصة مع قيام الدول الحديثة، التي تبعث على الاعتقاد بشعور جمعي يتشاركه مجموعة من الافراد، بدرجات متفاوتة، تجاه سمات ثقافية ومادية يُتَصَوَّرُ بأنها تختلف عن سمات غيرهم. والبداية هي تحديد هذا المشترك المتخيل ليسمح باستبعاد واستيعاب

من هم "مغايرون" ومن هم "متماثلون". لكن قد يكون على العكس أن التماثل والتغاير هو من يوجد الدولة ويخلق الهوية الوطنية. بالنسبة للبعض فإن بناء الدول الحديثة تم من مراكز سياسية وتم فرضها على المجموعات الهامشية أو المناطق الطرفية من خارجها في عملية "استيعاب" ثقافي ومؤسسي و "ادماج". الهوية الوطنية، بذلك، هي "تعبير عن الوحدة الثقافية والوعي الوطني المتجذر في الإطار السياسي لدولة مركزية." (Sahlins, 1989, p. 7).

يصر "كنودسن" على حقيقة أنه بمجرد تحديد الهوية الوطنية، ستبدأ عملية الاستبعاد، حيث سيسعى الأفراد إلى وضع مبادئ توجيهية لإثبات الانتماء إلى الهوية الوطنية من عدمه، تستند في ذلك إلى المعايير التي شكلت الهوية (Knud, 1997, p. 224)، ويقودنا ذلك إلى الايمان بالانتماء كمفهوم مدرج تحت الهوية أو مصطف إلى جانبها، حيث تظهر العلاقة بينهما وثيقة للغاية فيمكن اعتبار الانتماء عنصراً نشطًا لتأكيد الهوية أو الاشتراك فيها. فهو إشارة –ضعيفة أو قوية، ضمنية أو صريحة– للهوية. أما الهوية فهي حقيقة موضوعية، أو يُتَعَامَلُ معها على هذا النحو، تشير إلى شيء معروف وجوده ويشعر الفرد بالحاجة إلى أن يكون جزءًا منه، ويحتاج إليه لتطوير الانتماء (Gasparini, 2010, p. 434). غير أن الانتماء لا يتمحور بالضرورة على المشترك الكلي لكنه بالنسبة للهوية الوطنية بالذات هو في الغالب حتمي، سواء بالكثرة أو بالسلطة كما نصت عليه نظرة "بورديو". والأهم، أن هذا المشترك يرسم الحيز الذي يتمايز به عن غيره وهو كذلك ليس بالضرورة المختلف الكلي، فقد يحمل شيئا من المشترك الداخلي. مما يعني أن مفهوم الهوية الوطنية هو شبه تسليم بالمعطى المفروض والاذعان له بدئا ببناء التصورات والادراكات وانتهاءاً بتجسد الممارسات والاتجاهات. غير أنه كاد يكون تخيليا كما يذكر اندرسون عن الأمة بأنها قد تم بناؤها بطريقة تخلق شعوراً بالانتماء على الرغم من أن كل فرد لن يلتقي في الواقع بأغلبية رفاقه المواطنين (Anderson, 2006). أو هو كما تم تعريفه من قبل Wodak على أنه مبني خطابيا. حيث تفترض أن "الهوية الوطنية" في مجملها تعني "مجموعة معقدة من المفاهيم والمخططات الإدراكية المتشابهة، والتصرفات والمواقف العاطفية المتشابهة، والاتفاقيات السلوكية المماثلة، التي يشاركها

أصحاب هذه "الهوية الوطنية" بشكل جماعي والتي استوعبوها من خلال التنشئة الاجتماعية (التعليم، السياسة والإعلام والرياضة والممارسات اليومية." (Wodak, Rudolf , Martin , & Karin , 2009, p. 4) .

وبالتالي نصل إلى القول بأن الهوية الوطنية تحدث حالة انتماء خاصة حيث يجد الأفراد أنفسهم في بيئة اجتماعية تواجههم بحقائق عن أنفسهم وعن اشخاص آخرين يحيطون بهم (من وراء الحدود)، فتصل إلى مدركاتهم ترتيبات تصنيفية تميز بين من هم على شاكلتهم ومن هم مختلفون بغرض التعريف والتعرف على ذواتهم والشعور. لذلك يمكن القول بأن هذا التصنيف الاجتماعي هو أحد الأدوات المعرفية من بين أدوات أخرى يستخدمها الأفراد لتعريف أنفسهم كذوات وطنية في مقابل العالم الذي يعيشون فيه، عالم لذوات أخرى تحمل شيء من المغايرة يبعدها عن حيز الانتماء الوطني. ولو تراجعنا قليلا لوجدنا شيئا من التصنيف الاجتماعي كمفهوم أوسع للانتماء وهو ترتيب البيئة الاجتماعية من خلال تجميع الأشخاص بطريقة تجعلها ذات معنى بالنسبة للفرد، حيث ينظر الأفراد إلى أنفسهم على أنهم ينتمون إلى مجموعات اجتماعية، والاعتراف بالعضوية في هذه المجموعات يحمل في طياته معرفة بالقيم، الإيجابية أو السلبية، المرتبطة بهذه المجموعات (Liebkind, 1999, p. 141). وتتنوع بالطبع هذه التصنيفات الاجتماعية، لكن بالنسبة لنا نركز على الانتماء المرتبط بالهوية الوطنية والعضوية داخل الدولة.

يخبرنا باومان، بأن أولئك الذين يشعرون بأنهم ينتمون لا داعي للقلق بشأن هوياتهم. تصبح الهوية مشكلة فقط عندما ينقطع إحساس الشخص بالانتماء (Siân, 2016, p. 2). فالشعور بالانتماء هو معيار إدراك ينشأ من مزيج من السمات التي يلحظها المجتمع في المكان الذي يعيش فيه (Paasi, 2003). منطق آخر في تناول الهويات بشكل عام يدرج مفهوم الانتماء الذي يوقف الهوية على مشاعر شخصية أو جمعية تجاه كيان معين، وكلما صفت هذه المشاعر وتركزت تقوت الهوية وترسخت. فالنظر في الهوية هو مدعاة للنظر في الانتماء. وقد اجتذب المفهوم بالفعل الكثير من الأبحاث في السنوات الأخيرة

خاصة ما تعلق منها بالهوية الوطنية، على الرغم من أن ذلك بالنسبة لـ أطونيش يضعف تعريفه ويضيق نظرته (Marco, 2010). وهنا بالنسبة لـ "فانيسا ماي"، فإن الانتماء يقلق أكثر من الهوية لأنه مفهوم ديناميكي وعلائقي، بين الذات والمجتمع. يُعاش الانتماء بشكل نشط، كمفهوم، يتم تحقيقه من خلال تزامن الوجود مع الفعل في نفس الوقت، وهذا مقارنة بمفهوم الهوية الذي هو أكثر تفصيلاً وأحادي البعد الذي يبدأ من الفرد المنفصل والمستقل (May, 2013). وقد اعتبرته توني ستين–ألسون بمثابة "مشاركة القيم والممارسات والروابط الاجتماعية والرمزية والمادية. فهو ليس مجرد مسألة تحديد الهوية أو العرق. وبهذا المعنى، يرتبط الانتماء ارتباطًا وثيقًا بالتجارب المشتركة والشعور بالاندماج والاستبعاد" (Steen-Olsen, p. 314).

فكرة مشاركة القيم والتجارب المشتركة ينصرف بها تصورنا إلى الهوية الوطنية والانتماء لاعتبارهما عملية ديناميكية غير ثابتة تسري من الشعور إلى المشاركة ومن ثمة الممارسة يتحدد من خلالها مصير الفرد داخل الجماعة أو جماعات إما بالاستبعاد أو الادماج. والانتماء بهذا ينتهي إلى انتماء معنوي يضيق أو يتوسع بقدر ما ترسمه القيم المشتركة، وتتشكل معها مستويات متراتبة للانتماء يعبر عنها كدوائر أو نطاقات تدلل على الانتساب والولاء وليس ذلك إلا بتبني القيم الثقافية المشتركة. ما ينتج عنه منظرا عاما يصور جغرافيا للاختلاف في المشهد الهوياتي ينتقل داخلها، وعبرها، الفرد والجماعة بحثا عن التماثل ولكن أيضا الانتباه للتباين. فالنطاق هو "مجموعة من الأفكار التجريدية التي من خلالها نفهم العمليات الاجتماعية التي تشكل وتعيد تشكيل هذه المناظر المادية. لزيادة تعقيد الأمور، غالبًا ما يستخدم النطاق بشكل مجازي بالمعنى الذي تكون فيه اختلافات النطاق ضمنية ولكنها ليست أساسية للفكرة التي يتم تقديمها (Jonas, 1994, p. 257). وبشكل تبسيطي أكثر هو "تمايز "عمودي" العلاقات الاجتماعية فيه مضمنة داخل سقالات تراتبية للوحدات الإقليمية المتداخلة الممتدة من العالمي، فوق الوطني، والوطني نزولاً إلى الإقليمي، والمتروبوليتاني، والحضري، والمحلي، والجسد." (Neil, 2005, p. 9).

مبدئيا يظهر وأن النطاقات تعكس تراتبية هرمية لمستويات الانتماء تتحرك من الأدنى إلى الأعلى أو العكس، تفرضها كما سبق الإشارة إليه مساحات التوافق القيمي والتجارب المعاشة، كما يمكن أيضا

أن يكون لحجم المجتمع أو حتى للسلطة دور في خلق هذه التراتبية. أو قد يرتبط بالمصالح، فالمصالح الخاصة بوطن مرتبطة بالوجدان المتصل بدوائر مختلفة. لكن الأساس كما تذكر "نادية مصطفى" يكون حديث الانتماء إلى دوائر مختلفة حديث انتماء وجداني أو شعوري أو تاريخي، لذلك فأول مشكلة تواجهنا أن نبدأ الحديث عن دوائر الانتهاء متسائلين: أين الدائرة التي تحقق المصلحة؟ وأين الدائرة التي ننتمي إليها بحكم الجغرافيا أو التاريخ أو الدين أو العرق أو القوم؟ (نادية، 2014). ودائرة الانتماء كمفهوم مقارب للنطاق هي: "مجموعة من البشر، يشملهم وضع اجتماعي لوصف يتصفون به بالتشابه فيما بينهم، ويكون هذا الوصف ذا فاعلية اجتماعية، أي يشكل لمن يتصف به مركزا اجتماعيا يتعامل به ويؤثر في حقوقه وواجباته الفردية أو الجماعية مما يوجد صالحا مشتركًا بين من يشملهم، وينتج وعيا ثقافيا والانتساب إليه، ويحرك بواعث الدفاع عن وجوده. من بين التصنيفات .... ثمة تصنيف أساسه الإقليم، ومنه ظهرت الوحدات الصغيرة مثل القرى والأحياء والنواحي السكنية، أو الوحدات الكبيرة مثل الأقطار والأقاليم وغيرها (البشري، 2013، صفحة 21).

فالنطاق بهذا المعنى السابق "يشير إلى أبعاد مناظر معينة"، بينما يشير أيضًا إلى التسلسل الهرمي للمستويات، "لأعلى" و "لأسفل". كل خطوة أو مستوى –محلي، إقليمي، مقاطعة، دولة، وطني، عالمي– هو مستوى على نطاق جغرافي. بالمعنى الدقيق للكلمة، النطاق هو مجموعة من المستويات ذات الصلة (Garbutt, 2011, p. 40).

لكن في الحقيقة ليس هناك اجماع كلي على هذا المعطى الكلاسيكي والذي لا يوجد إلا كتصور نظري أحادي البعد للحركة البشرية والتفاعل الذي أخذ أنماطا وحمل معاني مختلفة خاصة في المجتمعات المعاصرة. فليس بالضرورة أن يكون النطاق إطارًا هرميًا محددًا مسبقًا لتنظيم العالم – محليًا وإقليميًا ووطنيًا وعالميًا– بل هو بدلاً من ذلك نتيجة عرضية للتوترات الموجودة بين القوى البنيوية وممارسات الفاعلين البشريين. وهي النقطة الأساسية التي يتم التطرق إليها في الدراسات النظرية الاجتماعية الأخيرة

(Marston, 2000, p. 220). وهذا ما دفع McGuirk إلى رفض ضرورة هذا الأساس الهرمي لمفهوم النطاق، ويدعو إلى إطار عمل فيه المقاييس تشكل بعضها البعض بشكل متبادل، وحيث يصبح إنتاج النطاق والعلاقات بين النطاقات مسألة للتحقيق التجريبي بدلاً من الافتراض النظري (McGuirk, 1997, p. 481).

لذلك قد يخدمنا بشكل أفضل الاقتراب من النطاق ليس كبنية وجودية "موجودة"، ولكن كبنية ابستيمولوجية، طريقة للمعرفة أو الإدراك (Jones, 1998, p. 28). إنه لا يستحضر صور المساحات المكانية الممتدة. بهذا المعنى، النطاق على سبيل المثال، –المحلي والوطني والعالمي– هو تعبير عن خيالنا المكاني. ومع ذلك، فإن الطرق التي نتخيل بها الفضاء ليست بديهية أو معطاة مسبقًا، وأي مجموعة من التقسيمات العددية للفضاء هي مجرد احتمال واحد من بين أمور أخرى. ويتم الحفاظ على كل من هذه الاحتمالات أو إسكاتها، مع إعطاء الأهمية لواحدة، من خلال علاقات القوة ذات التأثيرات السياسية والمادية (Jones, 1998). ويتطرق في ذلك "أندرو هيرود" من خلال مقارنة بين المقاربات المادية والمثالية إلى تبني موقف الماديين فبالنسبة لهم، فإن "الجانب الرئيسي للنطاق الجغرافي هو فهم أن النطاقات يتم إنتاجها اجتماعيًا من خلال عمليات النضال والتسوية. ومن ثم، فإن النطاق "الوطني" ليس مجرد نطاق موجود في التسلسل الهرمي المنطقي بين المستوى العالمي والإقليمي، ولكنه، بدلاً من ذلك، نطاق يجب إنشاؤه بنشاط من خلال العمليات الاقتصادية والسياسية التي دمجت في الدولة القومية الموسعة – الدوقيات والإمارات والإقطاعات المختلفة التي كانت الوحدات السياسية الرئيسية (على الأقل في أوروبا) حتى العصور الوسطى..... على عكس المثاليين، إذن، يؤكد الماديون أن مثل هذه النطاقات مثل المستوى المحلي والعالمي يتم إنشاؤها بنشاط من خلال ممارسات الفاعلين الاجتماعيين المختلفين – النطاقات ليست موجودة فقط، في انتظار استخدامها، ولكن يجب بدلاً من ذلك أن تجلب إلى حيز الوجود" (Herod, 2008, p. 219). في جهودهم للتغلب على الجمود الملحوظ في هذه النسخة الهرمية من نطاقات الانتماء للهوية، تحول العديد من المعلقين الجدد إلى نماذج شبكة للعمليات. يوضح عمل "هيلجا لايتنر" الأخير هذا التحول:

"تمثل الشبكات العابرة للحدود الوطنية أنماطًا جديدة للتنسيق والحوكمة، وهي سياسة جديدة للعلاقات الأفقية لها أيضًا مكانية مميزة. في حين أن مكانية سياسات النطاق يرتبط بالعلاقات العمودية بين الكيانات السياسية المتداخلة المحددة إقليمياً، على النقيض من ذلك، تمتد الشبكات عبر الفضاء بدلاً من تغطيته، متجاوزة الحدود التي تفصل وتحدد هذه الكيانات السياسية" (Leitner, 2004, p. 237).

ولعل هذه الرؤى المتأخرة اقتربت أكثر إلى الواقع كما تتمظهر الهوية الوطنية التي أصبحت الإشارة إليها أكثر في تفاصيل الحياة اليومية الجزئية عوض الكليات، وفق مقتضيات أنماط العيش المعاصرة والتي تتميز بالحركية المكانية التي دعمت الاحتكاك المباشر والتزامن الحدثي الذي خلق نوع من التواجد العيني مما يوسع مجال التجارب المعاشة والتفهم القيمي الذي تخطى أسوار الحدود المعنوية للانتماء والأكثر من ذلك ألغى التصور رأسي الاتجاه في صالح النظرة المتراكبة حيث تتداخل النطاقات ولا يمكن الفصل بينها أو تغليب أحدها على الأخر فقد يمتد المحلي إلى العالمي ويتراجع الوطني إلى المحلي وقد يكون ذلك اجماليا أو جزئيا.

3– التقاطعات السوسيو ثقافية–المكانية للهوية والانتماء:

لا يمكن الجزم بأن تعريف الهوية الوطنية يعتمد على الحدود الطبيعية، التي تعلم معنى الوطن على الرغم من أنه أكثر ما ولد مفهوم الدولة القومية الحديثة، كما لا يتم تعريفها بواسطة مكون مجزأ للخصائص الاجتماعية أو الثقافية على الرغم من أنها الصفة الأولية لتشكل الشعور الجمعي الوطني، بل هي بالأحرى توليفة تجمع بين المعنيين. لكن ذلك يحتاج إلى شيء من التدقيق فكما سبق الإشارة إليه لا تعتبر الهوية معطى قائما مسبقا إنما هي ممارسة ونشاط فمن جهة نجد أن الهوية الوطنية كما يقول "بيتر ساهلينز" هي "عملية مبنية اجتماعياً ومستمرة لتعريف "الصديق" و "العدو"، وهي امتداد منطقي لعملية الحفاظ على الحدود بين "نحن" و "هم" داخل مجتمعات أكثر محلية. الهويات القومية المبنية على أساس مثل هذه البنية المتقابلة لا تعتمد على وجود أي تمايز لغوي أو ثقافي موضوعي ولكن على الخبرة الذاتية للاختلاف. وبهذا المعنى، فإن الهوية القومية، مثل الهوية العرقية أو الجماعية، ملموسة وعلائقية يتم تعريفها من خلال الحدود الاجتماعية أو الإقليمية التي تم رسمها لتمييز الذات الجماعية ونقيضها الضمني، الموسوم بـ "الآخر" "

(Sahlins, 1989, pp. 270-271). ومن جهة أخرى يقف الانتماء كشعور تجاه جوهر معين يجسده الواقع المادي المكاني أو الاجتماعي الرمزي. فهو "مورد اجتماعي مادي ينشأ عن طريق عمليات الانتحال المتعددة والمرتبة. يصف الانتماء ارتباطات متبدلة التي يمكن أن تكون بطبيعة اجتماعية ومُتخيَّلَة وحسية-مادية. تكشف دراسة الانتماء المادية-سيميائية والمكانية-حسية عن الأنشطة التي تنتج الانتماء على منصات زمنية ومكانية مختلفة وداخل ممارسات يومية (متكررة، مؤداة، إلخ)، وطقوس (مفروضة)، و "أنظمة الانتماء" أكثر أو أقل مَأْسَسَةً (Youkhana, 2015, p. 16). وكذلك يتجلى مرة أخرى معنى الممارسة والنشاط وننتقل أكثر إلى التعريف وتنغمس الهوية في عملية تحديد الهوية، ومن الواضح أن شكل الارتباط بالهوية يتغير نتيجة لذلك، هذا هو الحال بشكل أكبر في عمليات التكوين والتحول والتعدد، لأن الانتماء كما أتينا على ذكره، هو العنصر النشط الذي يربط الفرد بموضوع الهوية. لكن ما يشد أكثر هو المنصة التي يقف عليها كلا المفهومين وتحدث من خلالها الممارسة وهي نتاج تقاطع بين البنى السوسيو ثقافية والواقع المكاني، كإطار مرجعي لقولبة الهوية والانتماء.

تعد الهوية الوطنية، في الواقع، نوعًا من الهبيتوس الذي قدمه "بورديو"، فهي نظام مكتسب من عمل المجتمع والدولة حيث يعمل عكلاهما على تعديل توجه الشعور الجمعي نحو القيم المشتركة وترسيخها في المجتمع من خلال تأطير الأفراد مؤسساتيا (الأسرة، المدرسة...الخ). وبالنسبة للدولة تعمل على تكريس المشترك العام وتدرجه تحت عنوان المواطنة، وكثيرا ما تأخذ طابعا فوقيا لتنغرس إلزاما كما يوضح "ووداك" في الأفراد الذين ينشئون في أماكن وأوقات معينة، حيث يتم دمج مجموعة المعتقدات أو الآراء المتواترة أو المشابهة في سياق التنشئة الاجتماعية، ومن خلال الأنظمة التصنيفية (خاصة حسب الجنس والعمر) المدرجة في القانون، من خلال الإجراءات البيروقراطية والهياكل التعليمية والطقوس الاجتماعية، تصوغ الدولة البنى الذهنية وتفرض مبادئ مشتركة للرؤية والتقسيم. ومن ثم فهي تساهم في بناء ما يسمى عادة الهوية الوطنية (أو، في لغة أكثر تقليدية، الطابع الوطني) (Wodak, Rudolf , Martin , & Karin , 2009, pp. 7-8). وتبدو القضية أكثر تعقيدا بالنسبة للمجتمع، فعندما نتحدث عن "اختيار" الهويات، فإننا نعني أن الناس يُنشِئُون هويتهم الوطنية لأنفسهم، بدلاً من مجرد مساواتها بالمواطنة. بعبارة أخرى، لا يقفون سلبيين أمام عمل القوى الدولة إذ يبادرون إلى اختيار كيفية "تقديم" أنفسهم بمصطلحات الهوية الوطنية (McCrone & Bechhofer, 2010, p. 922). فالناس لا "ينتمون" ببساطة أو وجوديًا (انطولوجيا) إلى أماكن معينة أو مجموعات اجتماعية كما يؤكده عمل "فيكي بيل" إنما

هي عملية صيرورة، هذه العملية هي واحدة من الممارسات العاطفية والمادية (Bell, 1999). ما يجعل الهويات ومعها الانتماء تتغير بمرور الوقت ومع تغير المواقف. ويصعب معها تحديد بداية هذا الطابع الوطني وأين ينتهي، متى يظهر ومتي يتوارى، وينطبق عليه وصف "أندرسون" كمتخيل.

فالهوية الوطنية بالنسبة للمجتمع ليست موقعًا للانتماء الأبدي والثابت، فهي تحتوي على شيء من القبول بالمشترك وفي بعض الأحيان خلقه وايجاده، والتغافل الظرفي عن المختلف فيه إما بالإذعان أو الاختيار الطوعي بما ينطبع في الأذهان من فهم للدولة بماضيها وما ستصبح عليه. وبالتالي، فإن الهوية الوطنية ليست ثابتة عند الولادة ومرتبطة بمكان ميلاد الفرد؛ بل هي مشروع مستمر يجب رعايته على حد قول "بيليغ" ويضيف بأن هذا المشروع يعاد إنشاؤه يوميًا بأي عدد من الرموز والأنشطة الاجتماعية (Block, 2007, p. 30). ويقودنا هذا إلى القول بأن الهوية الوطنية تحتوي أيضا فعل المجتمع، فعل أفراده وجماعاته الفرعية، بميزاتهم الثقافية والعرقية والدينية والنوعية والمهنية والعمرية والمكانية وغيرها من الخصائص التي تطبع مختلف فئات المجتمع داخل الدولة. وكلها تعمل منفردة أو مجتمعة على قولبة معنى الهوية الوطنية كما تتجلى لهم في تجدد مستمر حسب التوجه الخاص أو ربما حسب الغلبة والسلطة.

ويمكننا أن نؤشر على عمل المجتمع بتركيباته المتنوعة استنادا إلى أفكار تتعلق بنقل وانتاج المعنى والخطاب والكتابة والتنشئة الاجتماعية: تعتبر "مارينا كاسولا"، أن العيش في منطقة ما هو بالضرورة ناقل للمعنى، وأكثر من ذلك هو منتج للمعنى والإبداع والخيال. فبالنسبة لها، يلعب الأفراد دورًا في استدامة ما تسميه "الهوية الثقافية". يتم نقل هذا الشكل من الهوية من خلال التعبير الشعبي، والذي يساعد مثل المعرفة، والأمثال، والأغاني، والرقصات أو حتى اللهجات المحلية على تشكيل هوية جماعية إلى جانب الهوية الإقليمية أو الوطنية أو الجهوية. وبالتالي تكون الهوية إذن هي معاش، تجربة –تتشكل من خلال الاتصال بالمجتمع الذي ننتمي إليه– يشعر الفرد أنه عضو في هذا المجتمع – هويتنا الفردية التي يتم دمجها مع الآخرين – هي نفسها الخالقة للهويات " (Casula, 2006). من ناحية أخرى، تم تعريف الهوية الوطنية بالنسبة لـ "ووداك" على أنها نتاج الخطاب العام، وبناءا عليه تفترض تصرفًا إدراكيًا وسلوكيًا مشتركًا يكتسبه الأفراد من خلال التعليم ووسائل الإعلام والممارسات اليومية (Wodak, Rudolf , Martin , & Karin , 2009, p. 47). يتم إنشاء هذه الخطابات وفقًا لـ "باسي" عبر علاقات القوة والممارسات

الاجتماعية. فالهويات يتم استحداثها من خلال الكتابة عنها، والتحدث عنها، هذه التمثلات، سواء اللغة وأفعال اللغة مكونات لمفاهيم الهوية (Anssi, 2013).

لقد توصلنا إلى أن الخصائص السوسيوثقافية كما تتحدد وفق تعريف الهوية الوطنية تعمل أيضا على تشكيل وتأطير هذه الأخيرة لتخلق حالة ديناميكية تتحدد عبرها الصفة الظرفية للهوية الوطنية. وإن كانت أغلب الإشارات اتجهت نحو السياقات الثقافية الاجتماعية بما هي صفات فردية وجماعية كالعرق واللغة والجنس والمهنة والعمر...الخ، غير أنها حملت بعض التلميحات لصفات مكانية كسياقات ثقافية يسري عليها هي الأخرى كل ما أتينا على ذكره آنفا، فالمكان على قدر من الأهمية في التفاعل البشري وفي تكوين الهوية والانتماء. فهو على حد تعبير "جيرن" يقف في علاقة تكرارية مع الكيانات الاجتماعية والثقافية الأخرى: يتم إنشاءه من خلال الممارسات البشرية والمؤسسات ويساعد في صنعها بالمقابل. المكان مشبع بالحياة الاجتماعية إنه وسيط واحد (إلى جانب وقته التاريخي) تحدث الحياة الاجتماعية من خلاله؛ إنه شيء أكثر من مجرد متغير مستقل آخر. لذلك فإن المهمة التي تنتظرنا هي رؤية كل الظواهر الاجتماعية على أنها مغروسة مكانيا، على أنها تشكلت جزئيًا من خلال الموقع، والشكل المادي، وتصورهم (Gieryn, 2000).

نتجه في هذا إلى دراسة العلاقة بين المكان والعوالم الأنطولوجية الأخرى التي ترتبط بالهوية والانتماء، لأن المكان هو أيضًا طريقة لرؤية العالم ومعرفته وفهمه، ويوضح "كريسوال" أنه " عندما ننظر إلى العالم كعالم لأماكن، نرى أشياء مختلفة، ونرى الارتباطات والروابط بين الأشخاص في مكان ما، ونرى عوالم المعنى والخبرة، وفي بعض الأحيان قد تبدو طريقة الرؤية هذه وكأنها فعل مقاومة ضد عقلنة للعالم، طريقة رؤية كونها فضاء أكثر من كونها مكان"(Cresswell, 2004, p. 11). وبمفردات أخرى تتحدث أكثر دقة باستعمال مصطلح "الارتباط بالمكان" الذي هو العلاقة الرمزية التي يكونها الأشخاص الذين يمنحون المعاني الثقافية/العاطفية المشتركة لفضاء معين أو قطعة أرض توفر الأساس لفهم الفرد والجماعة للبيئة وعلاقتهم بها" (Low, 1992, p. 165). وينطبق ذلك على الحياة الاجتماعية ومن بعدها الهوية والانتماء، وكما كانت العلاقة تبادل أدوار بين المنتِج والمنتَج بين الهوية والانتماء من جهة والبنى السوسيوثقافية من جهة أخرى، فكذلك الحال بالنسبة للمكان أو "الفضاء" (الذي هو بالأحرى بنية سوسيوثقافية اظافية). هذا يعني أن المكان يتقمص نفس الدور بخلق مجموع عمليات في الحياة اليومية تجسد العملية المكانية ذاتها، من خلال إقامة علاقات اجتماعية تنتج هي الأخرى أماكن وفضاءات.

"فالإنسان باستحواذه على العالم، من خلال الاستيلاء على الفضاء، بكل حواسه وجسده، يعطي الفضاء بعدًا مزدوجًا. من ناحية، يعني تحديد الأنشطة والأفعال البشرية المكونة للحياة؛ ومن ناحية أخرى، يتضمن في طبيعته، مكونًا اجتماعيًا توفره العلاقات الاجتماعية التي تتم في مكان وزمان محدد، وهو إعادة إنتاج المجتمع" (Carlos, 2015).

ومن منظور سوسيوثقافي نفسي حول الهوية والانتماء، يُعتقد أن "هويات المكان تنشأ لأن الأماكن، باعتبارها مناطق محدودة مشبعة بالمعاني الشخصية والاجتماعية والثقافية، توفر إطارًا مهمًا يتم فيه بناء الهوية والحفاظ عليها وتحويلها. الأنشطة والأماكن هي جزء لا يتجزأ من العالم الاجتماعي للحياة اليومية؛ على هذا النحو، فإنها تصبح آليات مهمة والتي من خلالها تتحدد الهوية وتتموقع" (Cuba & Hummon, 1993, p. 112). وعند تحليله للانتماء الإقليمي، يميز "غوستافسون" بين الأماكن والأقاليم ذات النطاقات المكانية المختلفة، ووفقًا له، فإن "الأحياء والقرى والمدن والمناطق والدول والكيانات الأكبر قد تؤدي جميعها إلى الشعور بالانتماء، في جزء بسبب التجارب الشخصية المباشرة وفي جزء آخر بسبب التجارب الوسيطة والمعاني المنسوبة اجتماعيًا وثقافيًا" (Gustafson, 2009, p. 492). لذلك، يجادل "فوم إنجليس، و سوزي دونلي" بأن المكان هو أكثر من مساحة لأداء الهويات. ويذهبان إلى اعتباره جزء لا يتجزأ من الطريقة التي يرى الأفراد أنفسهم وفهمهم لها، وتشكل كتلة هوية أخرى في البناء المستمر للإحساس بالذات. "فالأمر يتعلق بالشعور بأنك في المنزل مع الآخرين الذين يُنظر إليهم على أنهم متشابهون، ... من الواضح أن هذا الشعور بالانتماء، والوجود في المنزل، مرتبط بقوة بالعائلة والمجتمع. ربما يرتبط في الغالب بمجموعات صغيرة تدور حول تفاعلات منتظمة وجهاً لوجه. والسؤال المطروح إذن هو ما إذا كان في عالم أكثر حركة وتحضراً وعولمة، حيث زاد التنقل الجغرافي، هناك نفس المستوى أو الشعور بالانتماء إلى المكان المحلي والمقاطعة والأمة" (Inglis & Donnelly, 2011, pp. 130-131).

ومع ذلك، على الرغم من أهمية المكان في تشكل الهوية، إلا أن فهم طبيعة المكان بالنسبة للهوية لا تزال غير واضحة تماما، خاصة مع التحولات الكبرى التي أتت بها العولمة وما تتضمنه من حركية عالية وتقارب الفضاءات والأماكن والتي تشكل نواة أفكار الحداثة وما بعد الحداثة وأن هذا التنقل المكاني المتزايد

والمرن وأنماط التراكم "تشير إلى أننا نعيش الآن في عصر يكون فيه المنطق المكاني حديثًا بطبيعته؛ عصر يتم فيه بناء علاقة اجتماعية مكانية جديدة " (Dodge & Kitchin, 2001, pp. 14–15). ففي كثير من الأدبيات السابقة كان يُنظر إلى الفضاء على أنه واقع ثابت وغير قابل للتغيير نسبيًا خلال فترة زمنية معينة. وإن خدم هذا الطرح بناء الدولة القومية والحفاظ عل السمات الأساسية لسلطتها، إلا أن المفهوم بهذا المعنى كما يقول "جوني هاكلي" يميل إلى دفع العلماء إلى التقليل من أهمية الطابع الديناميكي والنشط للمكان. ففي الواقع، الأرض أو الاقليم هي "بناء اجتماعي متعدد الأبعاد يعاد بناؤه باستمرار بالممارسات الاجتماعية المختلفة". لذلك، بدلاً من "استبعاد الأقاليم"، كان علينا النظر إليها على أنها "جزء لا يتجزأ من الممارسات الثقافية والاجتماعية والسياسية المتضمنة في صعود الوعي الوطني وتعبئته السياسية". ومن أجل الحفاظ على أدنى معنى للطبيعة المبنية للإقليم الحديث، يجب تصوره هنا على أنه "أفكار وخطابات، بقدر ما هو الحقائق المادية والسياسية للأرض والحركة وترسيم الحدود" (Jouni, 1999). واستكمالاً لمعنى الفضاء يمكن أن نعالج على وجه التحديد مسألة الارتباط بالمكان إذ من المحتمل أن تمد الجغرافية بمساحة افتراضية يمكن للأفراد الوصول اليها وهذا التصور يتيح لهم وللمؤسسات أن يكونوا أكثر مرونة فيما يتعلق بالمناطق الجغرافية والانتماء اليها.

لقد جادلنا حتى الآن بأن هناك ميل إلى فتح رؤى جديدة حول الهوية الوطنية والانتماء. وليس هناك حاجة إلى التركيز على البنى الكبرى التي تسير نحو فقد الكثير من سيطرتها لصالح البنى الصغيرة وفقا لمفهوم "بيليغ" (Billig, 1995) عن "القومية المبتذلة" banal nationalism، فإلى جانب مختلف التمثلات المجتمعية والتأكيدات الثقافية والأعمال المؤسساتية، الهوية الوطنية متأصلة في الحياة اليومية، ويتم اختبارها في التفاصيل الاعتيادية للتفاعل الاجتماعي، والعادات، والروتين والخبرات العملية ولكن أيضا بما تتيحه الفضاءات والأمكنة كسياقات ثقافية لبروز هذه الهوية. هناك، إذن، كما يقول "تيم إيدنسور" "تعدد في المسارات والجذور المتاحة لنا، والتي يمكن أن تفتح في نفس الوقت إمكانيات الاتصال، أو منع التنوع من خلال البحث عن الاستقرار لإبعاد غموض ما هو غير ثابت ومتعدد." ومع ذلك، فهو يزعم أن الهوية الوطنية، "بدلاً من الوقوف على أنها نقيض أنماط الاتصال السائلة هذه، هي بالمثل غير متجانسة، وتتشكل من خلال مسارات ووصلات ومصادر لا حصر لها". هذه الوصلات تأخذ شكل شبكة متشعبة تمثل السياق المعاصرة لتشكيل الهوية سياق تسيطر عليه العولمة بما تتيحه للتدفق وما تفرضه من أنماط سائلة للحياة والثقافة وللهوية والانتماء، حيث كما يضيف "تيم إيدرسون "يتواجد المواطن في وفرة كثيفة محيرة

للدلالات والأشياء والممارسات والمساحات. على الرغم من أن العولمة قد أنتجت تعقيدًا للتدفقات والشبكات، إلا أنه لا تزال هناك وفرة من العقد والأحداث والمواقف التي تتصدر الهوية الوطنية. في عالم آخذ في العولمة، تعيد الهوية الوطنية تكوين نفسها باستمرار، وتُعاد دمجها، وتعيد توطين الفضاءات والأشكال والممارسات الثقافية." (Edensor, 2002, p. 33). والحقيقة أن هذه الاستنتاجات على قدر ما تحمل من تطمينات حول مصير الهوية الوطنية والانتماء تدفع إلى طرح الكثير من الانشغالات حول حقيقتهم، فأمام هذا التعدد في الفضاءات والقابلية للولوج والاندماج قد يفرض عليها التماهي كمفهوم وجودي أو على الأقل تدفع إلى تبني معنى جديد بما يتوافق مع معطيات العولمة. بالإضافة إلى فرضية اسقاط النسق المكاني في تشكل الهوية الوطنية أمام الحركية العالية للأفراد بين الهجرة والاتصال المتاح ونشأة كيانات فوق وطنية، فكل ذلك يحملنا على النظر في حقيقة العولمة وما فرضته من تحولات في الهوية الوطنية والانتماء.

4– ديناميات الهوية الوطنية والانتماء في زمن العولمة:

قد يبدو أن إحدى النتائج الواضحة للعولمة وزيادة التنقل هي قلة الانتماء والتعلق بالمحلي والوطني لصالح العالمي، وتغير معنى المكان أو الفضاء ليصبح أشبه بموضع ظرفي بنفاذية عالية تسمح بالانتشار بين حدوده وليس سياجًا يحصر أفراده داخله يفرض الديمومة ويقاوم التغير. "تشير هذه النظرة إلى العولمة إلى أنه عندما يصبح العالم معولمًا، لا يمتلك الناس نفس الإحساس بالهوية والارتباط والانتماء إلى المكان مع المكان الذي يعيشون فيه أو نشأوا فيه، أو مع مجتمعهم القومي"، فصارت "أعداد متزايدة من الناس يفكرون ويعملون عالميا، عبر مناطق زمنية وفضاءات متعددة. يعيش الناس حياة أكثر تنقلاً ومنفصلة عن المحلي والوطني" (Inglis & Donnelly, 2011, p. 28). وفي الوقت نفسه، فإن العدد المتزايد للحركات والمنظمات العابرة للحدود الوطنية ومدى التطور الذي بلغته، والموصوفة كجزء من مجتمع مدني عالمي ناشئ، شكلت بعدا آخر من أبعاد الانتماء وامتدادًا محتملا للهوية يطرح الكثير من الخيارات للتعريف، ويدعي "مانويل كاستيلز" أن الانتماء الفعال انتقل في المجتمع المعاصر الذي أصبح "مجتمعًا شبكيًا" من المجتمعات المدنية للدول إلى مجتمعات الهوية الدفاعية المعاد بناؤها (Castells, 1996).

ويقف هذا المجتمع شاهدا على "رغبة وقدرة الأفراد والجماعات على التفاوض بشأن أشكال جديدة من الانتماء وكثير منها منفصلة عن الارتباطات الأكثر شيوعًا في المنطقة أو الجغرافيا أو النظام السياسي. تشير الأدبيات المتعلقة بالعولمة إلى عالم متدفق، وسياسة الانتماء هي جزء أساسي من هذا التدفق" (Croucher, 2004, pp. 35-36). وهي تقبل كحتمية أن الهويات لا تنزع إلى التوحد أبدًا، وفي أواخر العصر الحديث، تزداد تجزؤًا وانقسامًا؛ لا تفرد أبدًا بل تتضاعف عبر خطابات وممارسات ومواقف مختلفة، غالبًا متقاطعة ومتضاربة. إنها تخضع لعملية تأريخية راديكالية، وهي دائمًا في طور التغيير والتحول. (Hall, 1996, p. 4).

لقد وفرت العولمة أشكال جديدة من الترابط الاجتماعي والثقافي تظهر كشبكات متداخلة تعمل على وصل المتخيل العالمي بالتجسد المحلي والعكس، تحكمها في ذلك قوى الاستهلاك المفرط والتشيء القيمي للبنى الثقافية الرمزية، ما يجعل المجتمعات تفتقد إلى التفرد والوحدة الهوياتية. ويلقي "بيليج" بظلال من الشك أيضًا على نهاية الدولة القومية ويشير إلى أن القرية العالمية يتم الآن "تمييزها" يوميًا وأن العولمة المبتذلة تحل محل شروط القومية المبتذلة 'banal globalism is supplanting the conditions of banal nationalism'. ومع ذلك، فهو يشير إلى أن سيادة الدول القومية في الواقع "تنهار تحت ضغط القوى العالمية والمحلية" وأن تفوق الهوية الوطنية التي زعمت ذات يوم ولاء الأفراد يجب أن تتنافس الآن في سوق حرة للهويات، تتجاذبها قوى هوياتية تحتية تمثل المحلي والجماعات الفرعية وأخرى فوقية تمثل التنظيمات الفوق وطنية والعالمية (Billig, 1995). وهو يشارك رأي العديد من العلماء الآخرين الذين يعترفون بالتغييرات المتعددة التي تحدث الآن في العالم والتي تسلب الدول سيادتها وما عليها من واجب التكيف لاسترجاع سيادتها للحفاظ على ما تبقى من الخصوصية الثقافية وضمان الولاء بالانتساب لهذا الكيان الجامع. على الرغم من أن كثيرين وإن كانوا يعترفون بهذا التحول إلا أنهم يرفضون أطروحة "نهاية الدولة القومية" على سبيل المثال يكتب "كراسنر":

"أولئك الذين يعلنون السيادة على أنها قضية ميتة، يقرؤون التاريخ بشكل خاطئ، لذا يمكنني القول بوضوح إنهم لا يفهمون ذلك. لكنهم نسوا أن الدولة القومية لديها غريزة قوية للبقاء وحتى الآن كانت مناسبة للعديد من التحديات الجديدة، ويمكنني بسهولة أن أقول إنها ستناسب أيضًا تحدي العولمة " (Leka, 2017, p. 69). بينما ترى "جيسيكا ماثيوز" أن الحكومات الوطنية لا تفقد ببساطة استقلاليتها في ظل اقتصاد معولم. إنما هي تقدم تنازل لتتشارك السلطات السياسية والاجتماعية، والأدوار

الأمنية مع الشركات، والمنظمات الدولية، ومع العديد من مجموعات المواطنين، المعروفة باسم المنظمات غير الحكومية (Mathews, 1997, p. 50).

ويبدوا أن لهذا الوضع يد في تغيير مفاهيم الهوية والانتماء، فالهويات التقليدية التي يتم تضمينها في المجتمعات وتبنى داخلها، والتي تتشكل في أمكنة وفضاءات، أو الانتماء المرتبط بكلا العاملين والمنسب ثقافيا لمجتمعات بعينها (وطنية)، تشهد الآن نوعا من النبذ والتراجع أمام هويات الانسان العالمي والانتماء للثقافة الكونية بفعل سيطرة شبكات ثقافية واسعة ومهيمنة. ما خلق تعريفات جماعية وفردية ممتدة على مواقع منتشرة. وصارت الهوية شبه مفصولة ثقافيا ومكانيا على المستوى الوطني، وموصولة عالميًا، وحتى افتراضيًا، وتظهر الهوية الوطنية كقوة متقهقرة. ولم يعد للفضاء والمكان خاصة الوطني ذلك المعنى الثابت، فقد يتضمن ثقافة أفرادا متوطنين أو مواطنين في الشتات. ما انجر عنه فقدان الهوية والانتماء وفق النطاق الوطني أهميتهما نظرًا كما يقول "ويلفرد ماكلاي" لأننا أصبحنا أكثر قدرة على الحركة وأكثر ارتباطًا واستيعابًا في مجموعة من الأشياء التي لا تتوفر لنا آنيا، فإن أماكننا الفعلية والملموسة صارت أقل أهمية بالنسبة لنا، وصارت أكثر وأكثر عابرة أو مؤقتة أو قابلة للتبديل أو حتى يمكن التخلص منها (Mcclay, 2014). وفي نفس السياق يشير "هارفي" إلى "أزمة التشرد" التي يمكن ملاحظتها في العالم الحديث، حيث فقد الأشخاص جذورهم وإحساس بارتباطهم بالوطن، والأهم من ذلك، يشير إلى "حتى أولئك الذين يبقون جسديًا في مكانهم" قد يصبحون بلا مأوى (بلا جذور) من خلال غزو وسائل الاتصال الحديثة (Harvey, 1996).

لكن لم تكن العالمية فقط من استثمرت في هذا التراجع للنطاق الوطني، فقد شهدنا بروز المحلي أيضا حيث تعززت الانتماءات المحلية وتضخمت الملامح الثقافية الأكثر انحصارا وصارت مادة ثقافية تتبناها ثقافات عالمية مترامية. ويقول في ذلك "أندرو هيرود" أن هذا قد منح الامتياز للنطاق المحلي لاحتوائه على الأماكن التي يتم فيها بناء ومحاججة التمثل واللغة والمعنى والاختلاف، وحتى أولئك العلماء الذين يفضل عدم تسمية ما بعد الحداثة، انجذبوا إلى البيئات المحلية للغاية حيث تتشابك اللغة والعمل بشكل وثيق مع السمات المادية والرمزية للمكان. ليس دائمًا أو حتى من الواضح أن "المحلي" هنا يحمل أي وزن مجازي؛ إنه يشير ببساطة إلى التقيد الإقليمي للمعرفة والممارسة (Herod, 2008, p.

(261. وإن كان هذا الموقف يشير إلى ما آل إليه النطاق المحلي إلا أنه يصب أيضا في صالح النطاق الوطني على أساس أنه متضمن داخله. من حيث انتصر المحلي لتقويض الوطني قدم له خدمة لمواجهة العولمة حتى بدى وكأنه ردة الفعل المقصودة لصد تغول العولمة. وهذا ما يراه "بيليغ" فما بروز المحلي إلا استجابة عكسية للهوية الوطنية نفسها. فأمام هذا الوضع المتأزم للهوية الوطنية يتبنى وجهة النظر القائلة بأنه بدلاً من تطوير هويات فوق وطنية ذات أشكال متناسبة من الهوية، فإنها تفسح المجال لـ "نفسية أقدم وأكثر شراسة" وتأكيدًا للهوية الثقافية القائمة على اللغة واللون والقبيلة، الطبقة أو العشيرة أو المنطقة، أي هويات فرعية تحت وطنية يمكن أن تدعم المصالح والهويات الوطنية في بعض الحالات. وهذا يدعم فكرة "مفارقة التنوع"، حيث أنه أمام النزوع نحو التماثل العام يظهر التنوع المتفرد (Billig, 1995).

هذا المآل، الذي ربما يكون ردة فعل لأزمة الحداثة، رد فعل تكيفي لا يبدوا أنه يلغي المفاهيم الوطنية للهوية والانتماء إذ أنه لا يشرح في الواقع استمرار مشاعر الانتماء الوطني والفخر الهوياتي التي تظهر في المواقف المشحونة عاطفيا، أين يعود الأفراد إلى إشهار رموزهم الوطنية والتلويح بها علنا بكثير من الحنين، فالظاهر أن ثمة خللا ما. لقد انتبه لذلك "تيم ادرسون" وقدم عدة أسباب تدحض فكرة تراجع الهوية الوطنية والانتماء، فبالنسبة له أن هذه الميوعة الواضحة للهوية والافتقار إلى الثبات المكاني والثقافي يمكنها أن توفر تركيزًا استطراديًا وعاطفيًا لاستعادة الشعور بالمكانية، فأي شعور بعدم اليقين يتطلب البحث عن الأرض الثابتة، وتوفر الهوية الوطنية نقطة إرساء موجودة بالفعل لفعل ذلك. كانت تلك النقطة الأولى أما النقطة الثانية فتخص الهوية نفسها فهي لا تتشكل بالضرورة، أو حتى بشكل أساسي، من خلال التعريف حسب الوعي الذاتي الانعكاسي، ولكن، من خلال "الطبيعة الثانية"، مجموعة الافتراضات الواعية بالكاد حول الطريقة التي "نحن" نفكر ونتصرف وفقها. والنقطة الأخيرة يلتفت فيها إلى مجريات الحياة اليومية فمنها يلوح الأفق الوطني الذي هو إطار الفطرة السليمة الذي يوفر أمنًا وجوديًا ومعرفيًا معينًا، ورسمًا جغرافيًا وتاريخيًا، ومجمعًا قانونيًا وسياسيًا ومؤسسيًا يوفر موردًا شديد المرونة يمكنه استيعاب العديد من الهويات الوطنية، بحيث يمكن احتواء الهويات المتكاثرة داخل وخارج الأمة على اعتبار أن الهوية الوطنية لا تعني بالضرورة التجانس؛ كما أنها ليست دفاعية بطبيعتها أو محافظة أو مرتبطة بالتقاليد (Edensor,

(2002, pp. 28-29. كما خلص "ديلانتي"، إلى أن الهوية الوطنية لم تنتهي وجوديا غير أنها وضعت المجتمع أمام تحديات جديدة تحدي إعادة الإحياء، وقد استطاع الحصول على إمكانيات حديثة منحته إياها الاتصالات المعولمة والمشاريع السياسية العالمية والحركات العابرة للحدود التي هي في الواقع شبكات اجتماعية منظمة بشكل انعكاسي لأفراد، لم تكن قادرة على استبدال أي شيء بالمكان، تساعده في تحديد معاني الأشكال التقليدية للانتماء (Delanty, 2003, p. 195).

5– الخاتمة:

كثيرا ما تتجدد أسئلة الهوية الوطنية حول من نحن كشعب داخل حدود هذه الرقعة وأي تشكيلات اجتماعية أو ثقافية أو جغرافية أو وطنية أو عبر وطنية نحن ننتمي إليها أو لا ننتمي إليها. حيث أن مسائل الانتماء والهويات الثقافية والهويات تمثل بعضًا من أهم التحديات التي تواجه الحياة الاجتماعية في عصرنا، وأن فهمنا للهوية والانتماء أصبح أكثر تشوشا ولم يعد من السهل رسم الحدود الرمزية بنفس الدقة التي تظهر عليها الحدود الجغرافية. إن كون هذه الأسئلة قد اكتسبت هذه الضرورة الملحة ليس إلا لما شهده العالم من تحولات أظهرته كعالم يتسم بشيء من التداخل الاجتماعي والثقافي والسياسي وحتى المكاني. ولم تتحدد إجابات مرضية بعد يمكن الحصول عليها لإعادة التوازن المفقود عبر محاولات تكييف الهوية الوطنية وإعادة تشكيلها وإعادة صياغتها بما يضمن توحيد الشعور بها ليس على المستويات الرسمية من رسم السياسة والتغيير المؤسسي، كما هو الحال في تأكيد الحدود الداخلية والالتفات للمحلي، والخارجية بتوسيع الامتدادات الإقليمية الفوق وطنية، ولكن على المستوى المجتمعي الذي تمثله مستويات العيش اليومية العادية والعلاقات الإنسانية.

في هذا الصدد، يمكن القول إن الانتماء والفخر والوطنية لا تزال تشكل أبعادًا مختلفة للهوية الوطنية، وتتحدد من خلالها نطاقات التجانس النسبي التي نتحرك داخلها، وهناك بُعد آخر يتعلق بتوجهاتنا المعيارية تجاه القيم المنتجة بفعل الضغط المزدوج بين تعولم المحلي وتوطن المعولم، والتي قد تتشكل بدورها من خلال سياقات اجتماعية مختلفة، إحداها هي الدولة القومية نفسها، وبينما قد يتماهى الأفراد مع بعض

النطاقات المكانية، وقد يغمر الناس التغيرات في قيمهم وأعرافهم الثقافية والروحية والاجتماعية التقليدية. سواء كانت محلية أو إقليمية أو حتى فوق وطنية، فإن التعرف وفق النطاق الوطني والولاء له يحظى بالأسبقية على كل النطاقات الأخرى.

6– قائمة المراجع:

- طارق البشري. (2013). مفهوم الانتماء ودوائره المتحاضنة. تأليف مصطفى نادية، ابراهيم ماجدة، و مجاهد أسامة، *دوائر الإنتماء وتأصيل الهوية*. القاهرة: دار البشير.

- مصطفى نادية. (2014). الدائرة الإسلامية بين انتماء الفرد والدولة. تأليف مصطفى نادية، إبراهيم ماجدة ، و مجاهد أسامة، *دوائر الإنتماء وتأصيل الهوية* . القاهرة: دار البشير.

- Anderson, B. (2006). Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism. London: Verso.
- Anssi, P. (2013). Regional Planning and the Mobilization of 'Regional Identity': From Bounded Spaces to Relational Complexity. Regional Studies, 47(8), 1206–1219.
- Bell, V. (1999). Performativity and Belonging. Theory, Culture & Society, 16(2), 1–10. doi: doi:10.1177/02632769922050511
- Billig, M. (1995). banal nationalism. London: Sage Publication.
- Block, D. (2007). Second Language Identities. London: Continuum International Publishing Group.
- Carlos, A. F. (2015). The Spatial Turn a virada espacial. 14(4, Número Especial), 7-16. doi:DOI: 10.4215/RM2015.1404. 0001
- Castells, M. (1996). The Information Age: Economy, Society, Culture (Vol. 3). Oxford: Blackwell.
- Casula, M. (2006). L'identité corse : une relation récursive entre identités et territoires vécus. Nouvelles perspectives en sciences sociales, 2(1), 9–67. doi: https://doi.org/10.7202/602454ar
- Cresswell, T. (2004). Place: A Short Introduction. Oxford: Blackwell Publishing.
- Croucher, S. L. (2004). Globalization and Belonging The Politics of Identity in a Changing World . New York: Rowman & Littlefield Publishers, Inc.

- Cuba, L., & Hummon, D. (1993). A Place to Call Home: Identification With Dwelling, Community, and Region. The Sociological Quarterly, 34(1), 111–131. doi:doi:10.1111/j.1533-8525.1993.tb00133.x
- Delanty, G. (2003). Community . London: Routledge .
- Dodge, M., & Kitchin, R. (2001). Mapping Cyberspace . London: Routledge.
- Duszak, A. (2002). Us and Others: An introduction. Dans A. Duszak, Us and Others Social identities across languages, discourses and cultures,. Amsterdam /Philadelphia: John Benjamins Publishing Company.
- Edensor, T. (2002). National identity, popular culture and everyday life. Oxford: Berg.
- Garbutt, R. (2011). The Locals Identity, Place and Belonging in Australia and Beyond. Bern: PETER LANG.
- Gasparini, A. (2010). Community and Territorial Belonging . Comparative Sociology, 9(4), 433–462. doi:doi:10.1163/156913210x12555713197097
- Gieryn, T. (2000). A Space for Place in Sociology. Annual Review of Sociology, 26(1), 463–496. doi:doi:10.1146/annurev.soc.26.1.463
- Guibernau, M. (2013). Belonging Solidarity and Division in Modern Societies. Cambridge: Polity Press.
- Gustafson, P. (2009). Mobility and Territorial Belonging. Environment and Behavior, 41(4), 490–508. doi:doi:10.1177/0013916508314478
- Hall, S. (1996). Introduction: who needs identity. Dans S. Hall, & d. Paul , Questions of Cultural Identity (pp. 1-17). London: Sage Publications.
- Harvey, D. (1996). Justice, Nature and the Geography of Difference . Oxford: Blackwell.
- Heinich, N. (2018). Ce Que N’est Pas L’identité. les Éditions Gallimard.
- Herod, A. (2008). Scale: The local and the global. Dans S. Holloway, Stephen Rice, Gill Valentine, & Nick Clifford, Key Concepts in Geography (éd. 2nd, pp. 217-235). Londo: Sage.
- Inglis, T., & Donnelly, S. (2011). Local and National Belonging in A Globalised World. Irish Journal of Sociology, 19(2), 127–143. doi:doi:10.7227/ijs.19.2.9
- Jonas, A. (1994). The Scale Politics of Spaliality . Environment and Planning D: Society and Space, 12((3)), 257–264. doi:doi:10.1068/d120257
- Jones, K. (1998). Scale as epistemology 17(1). Political Geography, 25–28. doi: doi:10.1016/s0962-6298(97)00049-8
- Jouni, H. (1999). Häkli Jouni, Cultures of demarcation : territory and national identity in Finland,. Dans G. H. Herb, & D. Kaplan, Nested identities: Identity, Territory, and Scale. Lanham: Rowman & Littlefield (1999), 123-149 (pp. 123-149). Lanham: Rowman & Littlefield.

- Knud, K. (1997). Scandinavian Neighbours with Different Character? Attitudes Towards Immigrants and National Identity in Norway and Sweden. Acta Sociologica, 40, 223-243.
- Leitner, H. (2004). The politics of scale and networks of spatial connectivity: transnational interurban networks and the rescaling of political governance in Europe. Dans E. Sheppard, & R. McMaster, Scale and geographic inquiry (pp. 236–255). Oxford: Blackwell Publishing Ltd.
- Leka, D. (2017). Challenges of State Sovereignty in the Age of Globalization. JURIDICA , AUDJ,, 13(2), 61-72.
- Liebkind, K. (1999). Social Psychology. Dans J. Fishman, Language & Ethnic Identity. New York: Oxford University Press.
Low, S. (1992). Symbolic Ties That Bind . Dans I. Altman, & L. Setha, Place attachment (pp. 165-185). London: human behaviour and environment Plenum.
- Marco, A. (2010). Searching for belonging – an analytical framework . Geography Compass, 4(6), 644–659. doi: https://doi.org/10.1111/j.1749-8198.2009.00317.x
- Marston, S. (2000). The social construction of scale. Progress in Human Geography, 24(2), 219–242. doi: doi:10.1191/030913200674086272
- Mathews, J. (1997). Power Shift. Foreign Affairs, 76(1). doi: doi:10.2307/20047909
- May, V. (2013). Connecting Self to Society : belonging in a changing world. Palgrave macmillan.
- Mcclay, W. M. (2014). Introduction Why Place Matters . Dans W. M. McClay, & T. McAllister, Why place matters : geography, identity, and civic life in modern America. New York: Encounter Books.
- McCrone, D., & Bechhofer, F. (2010). Claiming national identity. Ethnic and Racial Studies, 33(6), 921-948. doi:DOI: 10.1080/01419870903457199
- McGuirk, P. (1997). Multiscaled Interpretations of Urban Change: The Federal, the State, and the Local in the Western Area Strategy of Adelaide. Environment and Planning D: Society and Space, 15(4), 481–498. doi:doi:10.1068/d150481
- Miller, D. (1995). On nationality. Oxford: Clarendon Press.
- Neil, B. (2005). New state spaces: urban governance and the rescaling of statehood. New York: Oxford University Press.
- Paasi, A. (2003). Region and place: Regional identity in question. Progress in Human Geography, 27(4), 475–485. doi:doi:10.1191/0309132503ph439pr
- Raagmaa, G. (2002). Regional Identity in Regional Development and Planning1. European Planning Studies, 10(1), 55-76. doi:http://dx.doi.org/10.1080/09654310120099263
- Sahlins, P. (1989). Boundaries: the making of France and Spain in the Pyrenees. Berkeley: University of California Press.

- Siân, P. (2016). The Routledge Handbook of language and identity. New York: Routledge .
- Steen-Olsen, T. (s.d.). Cultural belonging and peer relations among young people in multiethnic Norwegian suburbs. Nordic Studies in Education, 33(4), 314-328.
- Wodak, R., Rudolf , d., Martin , R., & Karin , L. (2009). The discursive construction of national identity (éd. Second). (A. Hirsch, M. Richard, & U. J. W. , Trads.) Edinburgh: Edinburgh University Press.
- Youkhana, E. (2015). A Conceptual Shift in Studies of Belonging and the Politics of Belonging. Social Inclusio, 3(4), 10-24. doi:doi://dx.doi.org/10.17645/si.v3i4.150